قصة

إسلام محمد علاء

موطن الضمير

كانت تزين تلك الحافلة امرأة ذاقت من الغربة مرارتها فاشتاقت لحلاوة الوطن.. نعم كانت مشتاقة إلى مداعبة النسيم لسعفات النخيل.. إلى ضفاف النهر الحاني على قريتها الطفلة بسكينة ووقار..

تكاد السعادة تتكلم على لسانها وتطفح مع دقات قلبها بشائر الرجوع إلى الوطن الحبيب وبدا وجهها مشرقا كالشمس إذ تراءى لها من بعيد منظر جنينتها الخضراء المتربعة على عرش الفؤاد بعد كل ذاك الغياب الطويل، وبدأت تتجدد ذكرياتها مع الأهل والجيران وأخيها الوحيد..

بعد لحظات قليلة سترى ذلك العالم الذي غابت عنه جراء الظلم والطغيان سنين مترحلة من بلد لآخر.. كانت ترسم في خيالها صورة أخيها الأصغر سالم لاشك أنه أصبح الآن أبا ولكن ما أسماء أولاده يا ترى؟! هل هي تلك الأسماء التي كانا معا ينسجانها في ليالي الصيف الحارة؟! لم تكن تعيش رغم الغربة بعيدة عن إسلامها دينا وفكرا وهوية.. وكانت تتصرف في أبسط الأشياء بما يوافق القانون الإلهي، لذلك تصورت أن تلك الصورة الدينية التي انطبعت في ذاكرتها كما عاشتها في بلدها وفي غربتها ذات الطابع الحماسي ما زالت موجودة..

فها هو شريط الذكريات يمر عليها دون انقطاع وراحت تتذكر عندما كان سالم يشترك في الإعداد لمجالس العزاء الحسيني في كل وقت وعندما كانا معا يطرزان الأعلام الحسينية التي من شأنها رفع حماسة الشباب.. كان أحد مهما بلغت قوته وجبروته لا يستطيع الوقوف بوجه من اجتمع تحت الراية الحسينية.. تذكرت تلك الندوات التي كانوا يعقدونها لمناقشة أمور الفتاة الإجتماعية في بيتهم الصغير، وكيف كانت تحس بالسعادة الحقيقية تهب على روحها فتبعث الأمل ويزداد النشاط لخدمة الدين الحنيف.. كان تذكرها للأحداث والمواقف الكثيرة التي عاشتها بين أحضان بلادها ينهمر بصوره عليها كما السيل بلا توقف وللحظة توقفت مع أحد الشعراء وهو ينشد:

جربت من غربتي ما لست أحمله ×× فما أكلف غيري غربة الدار وراحت تكرر هذا البيت الشعري مرارا حتى أفاقت على صوت امرأة تغني بشكل هستيري غريب.. تعوذت من غضب الله وفكرت: قد يكون هذا السائق غريبا عن قريتها وإلا ما كان ليستمع إلى الغناء كباقي أهلها خاصة وأن الشهر الفضيل على الأبواب..

ولم تسرح طويلا في فكرتها تلك حتى شاهدت فتاة على أعتاب العشرين تنزل قبلها من السيارة.. تبدو غريبة في لبسها وحركاتها.. سألتها:

- أنت من هنا يا ابنتي؟

- نعم يا خالة.. أنا من هذه البلدة..

- ولكن مظهرك!! أقصد ما هذه الملابس التي ترتدينها؟!

- يبدو أنك لم تزوري بلدتنا منذ أمد طويل لذا لم تعرفي الموضة الشائعة عندنا..

- وهل هذه هي الموضة؟! لم تتمكن من إتمام كلامها الذي أرادت أن توجهه للفتاة فقد خنقتها عبرة كادت ترديها ميتة..

وعادت إلى نفسها تتساءل: هل حقا هذه بلدتي التي أقصدها؟!

وعاودت السؤال بنبرة أكثر حدة من ذي قبل: هل أودعت ذكرياتي السابقة في هذا المكان؟!

لقد كانت تعتقد بأنه من المستحيل أن تصل خرافات الغرب عن الحرية والتمدن ويصل احتلالهم لبلادنا إلى الجسد ويتعداه ليصل إلى العقل والشعور.. وأدركت من هذه اللحظة أنها لن تطيق الغربة هنا في بلادها أيضا..

وقررت في داخلها أن تعود من حيث جاءت وإن بدا للبعض أنه قرار جنوني.. وقالت بما يشبه التعليل لهذا الموقف: الغربة كل الغربة في أن يتخلى الإنسان عن ضميره ومعتقده الذي هو روحه وكل ما يملك في الحياة..

وعلى الفور لوحت لتاكسي اقترب نحوها بالتوقف لينتشلها من أشد غربة عاشتها لساعة أو أقل في طريق اللاعودة وأوعزت له بعد ركوبها بالتحرك نحو غربة ألفتها منذ سنين لكي تضمن معها العيش براحة في موطن الضمير.